كتابك

أمينة الصاوى

حواء وبناتها في القرآن الكريم

دار المعارف

هـذا الكتاب

عنى القرآن الكريم بالمرأة . . . واعترف لها بحقوقها المشروعة . . وبكيانها الاجتماعى . . ودورها فى بناء الحضارة الإسلامية . . مخالفاً بذلك تلك النظرات القاصرة القديمة للمرأة على أنها سلعة تباع وتشترى وتؤجر وتوهب لغيرها . .

وذكرها القرآن فى الكثير من السور . . وخاطبها كما يخاطب الرجل . . وضرب بها الأمثال التى تضعها فى موضعها الصحيح . .

ويتناول هذا الكتيب قصص هاجر أم إسماعيل عليه السلام . وامرأة فرعون وبلقيس ومريم وغيرهن ممن ذكرهن القرآن . . وعلى ضوء المصادر التاريخية . .

٤٥٠١٤٩/١

١٠ ج

كتابك ٨

رئيس التحرير : أنيس منصور

أمينة الصاوى

حواء وبناتها في القرآن الكريم

دار المعارف

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدّمة

اهتم القرآن الكريم بالمرأة اهتماماً كبيراً لم تحظ بمثله قبل الإسلام ، فقد عاشت مهملة فى معظم المجتمعات القديمة ، وعانت الأهوال عبر العصور والأجيال : كانت ملكاً لأبيها تُشترى منه عند الزواج ، ثم تصبح ملكاً لزوجها ، وله أن يبيعها أو يقايض عليها أو يؤجرها أو يهبها لغيره ، وله أن يقتلها ، وإذا مات ضمت إلى التركة ليرثها من يرثه وكأنها عبد من عبيده أو ضيعة من ضياعه !

ولم يرتفع صوت واحد يدافع عن المرأة فى تلك المجتمعات أو يطالب برفع الظلم عنها ، بل إن بعض الشرائع قد اعتبرها فى عداد البهائم ، وكان بعضها الآخر يعتبرها مخلوقاً منحطاً وأداة من أدوات النسل ، ولم يعترف أحد بأنها إنسان لها عقل وإحساس كالرجل .

ويكفى أن نقول : إن أفلاطون الفيلسوف كان سعيداً لأنه خلق رجلاً لا امرأة وأن الشاعر والكاتب المسرحى يوربيدس كان يقول : (ملعون من لا يلعن المرأة).

وإذا كانت المرأة قد استطاعت أن تتحرر فى عصر روما الذهبي وأن تحتل كرسى العرش فى مصر القديمة فإننا نستطيع أن نقرر إجمالاً أن المرأة لم تكن تعامل كإنسان فى معظم المجتمعات القديمة ، ولم تحظ بمكانة الرجل أو بمكانة قريبة منها ؛ كما نستطيع أن نقرر أن الديانة اليهودية لم تعطها شيئاً يذكر ، وأن المسيحية وإن كانت قد منحتها بعض الحقوق – لم ترفع الظلم عنها ، ولم تخلصها من استبداد الرجل ، فظلت تعامل كمخلوق ناقص التكوين وكائن عرضى فى المجتمع المسيحى ، وظلت تعامل كعبد ذليل فى المجتمعات الأخرى : تباع وتشترى وتستأجر وتقتل أو توءد .

وجاء القرآن الكريم ، فاهتم بها ذلك الاهتمام الكبير الذى لم تحظ به من قبل : ذكرها فى الكثير من السور ، بل لقد جعل إحدى السور باسم (النساء) ، وجعل أخرى باسم (مريم) .

وأول ما أكده القرآن الكريم هو اتحاد المصدر الذى خرج منه الرجل والمرأة ، قال تعالى فى سورة النساء الآية الأولى : (يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خلقكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً) . وقال عز شأنه فى سورة الأعراف من آية ١٨٩ : (هُوَ الّذِى خَلَقكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا) . وقال جل جلاله فى سورة الروم آية ٢١ : (ومِنْ آيَاتِهِ أَنْ خلَقَ لَكُمْ مِنْ

أنفُسِكُمْ أزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مّوَدّةً وَرَحْمَةَ إنّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يتفكّرون) .

وخاطب القرآن الكريم المرأة كما خاطب الرجل فقال فى سورة الأحزاب آية ٣٥ :

(إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيراً والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجراً عظيماً) .

وسوى القرآن الكريم بين الرجل والمرأة فى العقاب والثواب فقال : (ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيراً) . وأعطى القرآن الكريم المرأة كثيراً من الحقوق التى كانت محرومة منها كحق التملك وحق البيع والشراء وحق التصرف فى المال بلا تدخل من الأب أو الزوج ، وجعل لها نصف حظ الرجل فى الميراث – بعد أن كانت هى نفسها بعض التركة ، وأعطاها حق العمل وحق التعلم وحق اختيار الزوج وحق الطلاق إن أساء الزوج معاملتها ، واستحال عليها أن تعاشره ، وفرض على الرجل أن يحسن معاملتها ولو كرهها فقال : (وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا

شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً) [١] كما فرض على الرجل أن يقدم لها الصداق عند الزواج وحرم عليه أن يسترده كله أو بعضه بغير رضاها فقال : (أتأخذونه بهتاناً وإثماً مبيناً وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض ، وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً) [٢] .

واحتفظ القرآن الكريم للمرأة بعد الطلاق بحقوقها فى النفقة على اختلاف أنواعها ، وقيد تعدد الزوجات بوضع شروط قاسية جعلته أقرب إلى التحريم منه إلى الإباحة .

واهتم القرآن بالمرأة الأم فذكرها مع الأب وطالب بالإحسان إليها فقال : (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا) [٣] وقال أيضاً : (ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهناً على وهن وفصاله فى عامين أن أشكر لى ولوالديك إلى المصير) [٤] .

كذلك اهتم القرآن الكريم بالمرأة — بنتاً — فحرم وأدها ، وسجل السخط على الذين يئدون البنات فقال : (ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون ، وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم ، يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه فى

---

(١) النساء (١٩)

(٢) النساء (٢٠ ، ٢١)

(٣) الإسراء (٢٣)

(٤) لقمان (١٤)

التراب ، ألا ساء ما يحكمون) (١) وقال :(وإذا الموءودة سئلت بأى ذنب قتلت) (٢).

هكذا أعز القرآن الكريم المرأة ورفع مكانتها ، وجاء بالمبادئ التى تنظم وضعها فى المجتمع وتكفل لها الحياة الكريمة ، وقد بلغ من حرص القرآن الكريم على مصلحة المرأة وما فيه خيرها أن قدم لها عدداً من النماذج النسائية الخيرة ، لتكون لها قدوة تحتذيها فى العمل الصالح والتضحية والإيثار والصبر وقوة الإيمان كهاجر أم العرب وآسيا امرأة فرعون ومريم أم عيسى وعائشة أم المؤمنين رضى الله عنها .

ثم قدم لها عدداً من النماذج النسائية الشريرة لكى تتنكب نهجها ، وتبتعد عن التشبه بها كأم جميل حمالة الحطب الكافرة الطاغية الجاهلة ، وامرأة العزيز الفاجرة الفاسقة وامرأة أيوب الملول الضعيفة الإيمان .

كما قدم القرآن الكريم قصة المجادلة خولة بنت ثعلب ليعرف الناس من خلالها ما تجنيه عليهم بعض العادات الظالمة والتقاليد المستهجنة التى كانت تسيطر على عقلية المجتمع الجاهلى .

وهكذا اهتم القرآن بالمرأة ، وهكذا رفعها إلى المرتبة الإنسانية ، وركز الأضواء على كل صغيرة وكبيرة فى حياتها بعد أن كانت تعيش كماً مهملاً فى دياجير الظلم والظلام !

---

(١) النحل (٥٧ – ٥٩)   (٢) التكوير (٨ ، ٩)

وما أحوجنا نحن النساء المسلمات فى عصرنا هذا إلى التمسك بحقوقنا التى جاء بها القرآن الكريم والالتزام بآدابه وتعاليمه والعمل على الاستفادة بما قدمه من المثل العليا لنرتفع إلى المستوى الذى أراده لنا .

أمينة الصاوى

حـــواء

(وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة . قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إنى أعلم ما لا تعلمون) .

هكذا كانت البداية ، ثم خلق الله سبحانه وتعالى آدم عليه السلام من طين من حمأ مسنون . ثم نفخ فيه من روحه بشراً سوياً : (وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم) البقرة ٣١ ، ٣٢ ، فأمر الله آدم أن ينبئهم بالأسماء ففعل فأمرهم سبحانه بالسجود لآدم فسجدوا جميعاً إلا إبليس ، فقد أخذه الغرور وأبى واستكبر ، وكان من الكافرين ، فحقت عليه اللعنة ، وطرد من الجنة فخرج منها حزيناً يائساً .

وخلق الله لآدم زوجته من نفسه ثم قال له : (يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين) البقرة / ٣٥ ، فامتثل آدم للأمر ، وعاش مع زوجته فى

سعادة ما بعدها سعادة ، أما إبليس فقد عز عليه أن يطرد من الجنة وأن يعيش خارجها تطارده اللعنة أينما حل وحيثما ارتحل ، فصمم على أن يثأر لنفسه !

واحتال إبليس اللعين حتى دخل الجنة ، وراح يتظاهر لآدم بالحب والإخلاص حتى انخدع آدم بمعسول قوله ، فأخذ يحدثه وزوجته عن الخلود والملك الذى لا يفنى ، وانبهرت حواء بكلامه المزوق المنمق ، فراحت تسأل : كيف يكون الخلود ؟ فقال الرجيم وهو يشير إلى الشجرة التى عينها الله لهما ونهاهما عنها : (ثمرة من ثمار هذه الشجرة فيها الخلود لكما !) ، واندفعت حواء تريد أن تخطف إحدى ثمار الشجرة ، ولكن آدم وقف بينها وبين ما تريد ، وذكرها أنها الشجرة التى نهاهما الله عنها ، فقال إبليس الرجيم بخبث : (ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين !) الأعراف / ٢٠ . فهمت حواء مرة أخرى تريد الوصول إلى الشجرة ، ولكن آدم منعها بقسوة وأفهمها أنه لن يعصى ربه ولن يسمح لها بالعصيان !

وعز على إبليس أن يكون نصيبه الفشل ، فانتهز أول فرصة وراح يزين الخلود لحواء ويغريها بكل وسائله الخبيثة حتى اقتنعت وأخذت الثمرة ، وأسرعت إلى آدم تغريه بدورها ، فاقترب منها ونظر إلى الثمرة ، وشم رائحتها ، ثم نسى كل شيء ولم يستطع أن يقاوم ، ودون وعى وجد

آدم نفسه يلتهم الثمرة مع حواء ! ولم تكد الثمرة تستقر فى جوفيهما حتى نزعت عنه وعن زوجته ثياب من النور كانت تغطى جسديهما ، وظهرت لهما سوءاتهما ، فأخذا يخصفان عليها من ورق الجنة ، ولكن الشجر كان يهرب منهما ولا يمكنهما من ورقه ! وناداهما الله قائلاً : (ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين ؟) الأعراف / ٢٢ .

وأحس آدم بعظم الجرم الذى ارتكبه فبكى أسفا وندما وشاركته حواء فى البكاء : (قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) الأعراف / ٢٣ ، (فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم . قلنا اهبطوا منها جميعاً فإما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون) البقرة / ٣٧ ، ٣٨ .

هبط آدم وحواء إلى الأرض تصحبهما الحسرة والألم ، وهبط إبليس مزهواً بأول انتصار سجله على أبى البشر وأمهم .

وعلى الأرض بدأ الصراع بين الخير والشر ، بين الإنسان والشيطان ، وبعد فترة وضعت حواء أولى الثمار البشرية قابيل وتوءمه . ثم وضعت هابيل وتوءمه . ثم توالت الثمار وأخذت الحياة تسير نحو الهدف الذى حدده الخالق العظيم لآدم الذى استخلفه فى الأرض ليعمرها وينشر الخير والعدل والسلام عليها .

هاجر أم العرب

هى الأميرة هاجر سيدة القطرين ، وأميرة منف وزوجة مليكها ، وكانت قد آمنت بآلهة قومها المتعددة ، تلك الآلهة التى قال عنها الكهان : إنها تحمى المصريين وتدافع عنهم وتحارب من أجلهم ، بل تقاتل بالسلاح فى صفوفهم ، فلما حدث أن هجم الهكسوس على زوجها ، وخرج لحربهم لم تتخيل قط أن الهكسوس ينتصرون على زوجها ويقتلونه شر قتلة ، فلما حدث هذا راحت تسأل نفسها : لماذا آمنت بهذه الآلهة التى لا تستطيع أن تفعل شيئاً لمن آمن بها ؟

وبدأت هاجر تفكر تفكيراً جديداً وهجم الهكسوس على قصرها . . ودخل الجنود إلى غرفتها وعرفوا – من التاج الذى فوق رأسها – أنها أميرة القصر ، فحملوها إلى قائد الجيش الذى حملها بدوره إلى الملك ، وما إن مثلت هاجر بين يدى الملك حتى أهانها وأذلها وعيرها بجبن زوجها ، ثم أمر بنزع التاج عنها وضمها إلى جوارى قصره ، وامتثلت هاجر لما فرض عليها ، ولم تعبأ بالحال التى صارت إليها ، فقد كانت مشغولة بذلك التفكير الجديد الذى طرأ عليها !!

وجاءت سارة إلى القصر وزاملتها هاجر ، ورأتها دائمة الصلاة والذكر

والتسبيح ، وأحست هاجر بنفسها تنجذب إلى سارة فسألتها وتحدثت سارة عن دين إبراهيم ، وكانت هاجر تستمع بكل حواسها إلى كلمات سارة ، وشعرت بهذه الكلمات المضيئة تستقر فى أعماق نفسها ، وشرح الله قلبها لهذا الدين ، فدخلت فيه ، وآمنت به ، واستقرت روحها الحائرة على شاطئه الأمين .

وتعلمت من سارة كيف تصلى ؟ وكيف تسبح ؟ وكيف تذكر الله سبحانه وتعالى ؟ وتعلقت كل منهما بالأخرى فلم تستطع فراقها ، وعندما جاء الخبر بقرب سفر سارة ابتهلت هاجر إلى الله ألا يفرق بينها وبين سارة ، وأن يجعلها ترحل معها إلى حيث تذهب ، واستجاب الله عز وجل إلى دعائها ، فأمر الملك بأن تكون فى صحبة سارة عند سفرها .

واستقر إبراهيم مع سارة وهاجر بأرض كنعان وسط الطائفة التى آمنت به ، وعاشوا حياة رضية هانئة لا يعكر صفوها إلا حنين إبراهيم إلى الولد ، وكانت سارة تتألم هى الأخرى لهذا الحرمان ، وتدعو الله آناء الليل وأطراف النهار أن يمن عليها بولد تقر به عين زوجها ، ولكن الله سبحانه وتعالى لم يستجب لدعوتها لحكمة خفيت عليها ، فراحت تفكر فى تزويج إبراهيم بأخرى تنجب له ذلك الولد ، وعز عليها أن تفعل ، وفى نفس الوقت شق عليها ألا تفعل ، ولم تلبث أن سقطت فريسة صراع جبار أسلمها إلى حالة مرضية عجز الطب عن علاجها ، وقامت هاجر

فى أثنائها بكل ما يلزمها من عناية ورعاية .

وفكرت سارة وهى فى فراش مرضها فى هاجر هذه المؤمنة الصالحة ، وقالت لنفسها : لم لا تكون هاجر هى الزوجة التى تمنح إبراهيم الولد ، وتمنح الأسرة كلها السعادة ؟

وقامت سارة من فراش مرضها ، وسارت حتى وصلت مكان هاجر ، فوجدتها تصلى فى إيمان وخشوع ، فجلست تتأملها فى صلاتها وتسترجع قصتها من البداية ، وهنا وضحت لها الحكمة الإلهية السامية التى جعلتها تؤسر وتنقل إلى مصر حيث تتعرف عليها هناك ، وتتعلق بها ، ثم تحضر معها إلى أرض كنعان حيث تعيش معها ومع زوجها إبراهيم .

ولم تنتظر سارة حتى تكمل هاجر صلاتها ، وإنما أخذت طريقها إلى صومعة إبراهيم وألقت إليه برأيها ، وحاول إبراهيم عليه السلام أن يعترض عليها مبيناً لها أن هذا الفعل قد يسىء إليها فى المستقبل ، أو يكون سبباً فى شقائها ، ولكنها صممت ، فاستجاب إبراهيم ودخل بهاجر .

وحملت هاجر ، ففرح إبراهيم وفرحت الفئة المؤمنة به ، وأخذت هاجر تصلى لله شكراً وتقول : رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على . . رب اجعله من الصالحين ؟

ونامت هاجر لياليها قريرة العين سعيدة بفضل الله الذى اختارها لتنجب ذرية لنبيه وخليله إبراهيم ، ورأت فى نومها من يقول لها :

يا هاجر ، قد سمع الله ضراعتك وسوف يهب لك ولداً ذكراً فسميه إسماعيل - أى المسموع من الله - لأن الله سمع صلاتك وابتهالك ، وسوف يباركه ، ويكثر نسله كثيراً .

كانت هذه حال هاجر ، أما سارة فقد كانت لها حال أخرى : لقد استيقظت الغيرة فى قلبها كأقوى ما تكون الغيرة ، وكانت - المسكينة - تجتهد فى كبتها والقضاء عليها ، ولكنها لم تفلح ، فذهبت إلى زوجها وقالت له : لقد دفعت إليك بهاجر ، فلما حملت ترفعتْ على ، وتعالت ، فأجابها إبراهيم : هى صاحبتك تفعلين بها ما تشائين .

وجاءت اللحظة الحاسمة ، ووضعت هاجر إسماعيل ، واستقبل إبراهيم - عليه السلام - البشرى سعيداً ، وراح يصلى لله شكراً وحمداً ، ثم اندفع إلى الطفل وحمله بين ذراعيه وهو يقول : - رب إنى أعيذه بك وذريته من الشيطان الرجيم . . وهكذا أسعد ميلاد إسماعيل عليه السلام إبراهيم عليه السلام وقرت به عينه - على حين أشْعَلَ مولده نيران الغيرة أكثر باطراد فى نفس سارة العاقر ، وامتد لهيب هذه الغيرة يأكل قلبها فى ضراوة ما بعدها ضراوة !

واستخار إبراهيم ربه .فأوحى إليه أن يركب دابته ، ويصطحب الطفل وأمه ويسير حيثما توجهه العناية الإلهية ، ونفذ إبراهيم ما أمر به على الفور ، وسار بهما يضرب فى الفيافى والقفار ، وهناك عند مكة ترك

إبراهيم عليه السلام هاجر وإسماعيل ، واتجه يريد العودة من حيث جاء ، فذهلت هاجر وهي تراه يدير عنق دابته عائداً ، وأمسكت بلجام الدابة وصاحت : لمن تتركنا في هذا المكان البلقع الذي لا حياة فيه ولا ماء ، ولا يقصده إنسان ، ولا يقطنه غير الوحوش والأفاعي والهوام ! ؟

فلم يجبها إبراهيم عليه السلام بكلمة واحدة . فنظرت إليه تسترحمه ، ولكنه انطلق صامتاً دامع العينين ، فصرخت من مكانها : آلله أمرك بهذا ؟ فأجابها إبراهيم عليه السلام : نعم فقالت هاجر - في استسلام المؤمنة الصادقة الإيمان : إذن فالله لا يضيعنا .

ومضى إبراهيم مسافة قصيرة ، ثم رفع وجهه إلى السماء وقال : (ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون) إبراهيم / ٣٧ ، وانطلق على طريق العودة إلى أرض كنعان ، وقد امتلأت نفسه بالحزن والألم والخوف على فلذة كبده الذي لم تكد عيناه تكتحلان برؤيته حتى حرم رؤيته واضطر إلى تركه وأمه بالعراء . ولكن إيمان إبراهيم عليه السلام كان أقوى من كل هذا ، وكانت حكمته أكبر فصبر واحتمل .

أما هاجر فقد جلست تداعب طفلها بيدها على حين كان عقلها في حيرة ، وانتهى اليوم الأول وجاء الليل وأعقبه فجر جديد ، ثم تعاقبت

الأيام والليالى ، ونَفِد الزاد ومن بعده نفد الماء ، فصبرت هى واحتملت ، لكن الطفل لم يستطع الصبر ، وبكى الطفل من الجوع ، ثم بكى من العطش ، وحاولت هاجر أن تجد لابنها ونفسها مخرجاً ، فسعت نحو أقرب الجبال وأدناها من الأرض علّها ترى أحداً أو تعثر على أثر لماء أو حياة ، وخيل إليها أن لجة ماء عند المروة ، فأسرعت إليها حتى إذا وصلت المكان لم تجد شيئاً ، فعادت إلى الصفا ، فإذا بالطفل يصرخ فى ألم مؤلم ، فاندفعت مرة أخرى إلى قمة الصفا ، وأعادت النظر ، وخيل إليها للمرة الثانية أنها ترى الماء عند المروة ، نعم ، لقد أذهلها الموقف وما تعانيه من الحقيقة التى لمستها بنفسها منذ قليل ، حقيقة السراب !

وهكذا سعت هاجر سبعة أشواط فى حالة لاشعورية باكية القلب دامعة العين ، وأعياها السعى ، ونال منها التعب والجهد ، فسقطت على الأرض إلى جوار الطفل ، وقد أيقنت بالهلاك لها وله ، ولكن رحمة الله كانت منها ومن ولدها جد قريبة .

نعم ، لقد تفجرت المياه فجأة من جوف الأرض ، وكونت بحيرة صغيرة تحت قدمى الطفل . ونظرت هاجر إلى مصدر الصوت الذى وصل إلى سمعها ، صوت المياه المتفجرة ورأت الماء ، ولكنها لم تصدق أذنيها ولا عينيها ، وهتفت متسائلة . رباه ، ماذا أرى : مياهاً أم سراباً ؟ فمدت يدها إلى الماء وتيقنته وأخذت فى فرح تبلل شفتى الطفل ، ثم

أخذت تسقيه حتى ارتوى ، وهدأت نفسه فشربت هى الأخرى ، ثم رفعت رأسها إلى السماء ، وبعد أن شكرت هاجر ربها القادر على كل شيء ، الرحيم بعباده – اتجهت إلى المياه التى كانت لا تزال تتفجر ، وقالت وهى تحاول جمعها : زمى . . زمى . . أى تجمعى تجمعى ولا تضيعى فى الرمال ، ولم تتسرب المياه فى الرمال ، بل تفجرت بقوة أكبر باطراد . . واندفاع أشد ، ولا تزال تتفجر حتى يومنا هذا من عين زمزم التى بجوار الكعبة المشرفة على مقربة من جبل الصفا والتى ارتوى منها ويرتوى ملايين الملايين من المسلمين .

وعاشت هاجر بولدها إلى جوار زمزم هانئة قريرة العين ، وزارهما إبراهيم عليه السلام ورأى الصحراء المجدبة قد تحولت إلى جنة وارفة الظلال ، فسجد لله شكراً ، ثم عاد إلى سارة يروى لها قصة المعجزة التى تحققت وسط الصحراء القاحلة المقفرة .

ومرت على مقربة من المنطقة قافلة لقبيلة كبيرة هى قبيلة جرهم ، فلاحظ رئيس القافلة الذى يعرف المنطقة خير المعرفة لكثرة ما مر بها فى رحلاته أن شيئاً جديداً قد طرأ ، فغير أحوال المنطقة ، فراح يبحث الأمر .

وسارت القافلة حتى بلغت مكان زمزم ، وتم التفاهم مع هاجر على البقاء إلى جوار العين ، وأرسلوا فى طلب بقية أهلهم ، فجاءوا وأقاموا

البيوت ، كما جاء العماليق أيضاً وأقاموا البيوت وامتلأ المكان بالسكان .

وإذا بالوادى المقفر المجدب الموحش ينبض بالحياة ، ويصبح جنة من جنان الأرض وظلت هاجر إلى جوار ولدها عوناً له وسنداً حتى توفيت ، فدفنت فى حجر إسماعيل .

أم موسى

عندما شعرت أم موسى بأعراض الحمل الثالث فزعت وأخذت تدعو الله أن يكون الجنين بنتاً لا ولداً ، وعندما أتمت شهور حملها وحان وقت المخاض حرصت على ألا يحضرها أحد من القابلات أو نساء الحى ، واكتفت بمساعدة ابنتها لئلا يصل خبر الوليد إن جاء ذكراً إلى فرعون ورجاله فيُذبَح ؛ كما ذبحوا المئات من الأطفال الذكور خوفاً من نبوءة الكاهن الأعظم الذى قال : (إن مُلْك الفراعنة يزول على يد مولود ذكر يولد فى بنى إسرائيل) .

وعندما اكتشفت أنها وضعت ذكراً اشتد فزعها ، وراحت تحتضنه بقوة وهى تبكى فى حرارة ، واستطاعت أن تخفيه عن الأعين شهوراً وصل بعدها الخبر إلى الفاحصين ، فجاءوا يدقون بابها : (وأوحينا إلى أم

موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم ولا تخافى ولا تحزنى إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين) القصص / ٧ .

وفعلت أم موسى ما أوحى به الله سبحانه وتعالى إليها : وضعته فى صندوق ، ثم أغلقت الصندوق ، وأمرت أخته أن تخرج من الباب الخلفى ، وأن تلق به إلى النيل ، ثم تسير خلفه لتعرف أين يستقر به المقام ؟

واندفعت الابنة تنفذ أمر أمها على حين اتجهت الأم إلى الباب تفتحه للفاحصين الذين فتشوا البيت تفتيشاً دقيقاً ، وعندما لم يجدوا بغيتهم انصرفوا آسفين ، واندفع الصندوق مع التيار حتى دخل قصر فرعون ، فذهلت الابنة ، وأسرعت إلى أمها الملتاعة بالخبر : (وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً إن كادت لتبدى به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين) القصص / ١٠ .

وأمرت الأم ابنتها أن تعود إلى القصر ثانية لتتعرف أخبار أخيها ، وذهبت الابنة ورأت عجباً : آسيا امرأة فرعون تحتضن الطفل فى حب وهى تقول لزوجها بتوسل : (قرة عين لى ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً) القصص / ٩.

ورأت فرعون يستجيب لزوجته ، ثم يشاركها فى اختيار الاسم المناسب للطفل . . اسم موسى – المكون من كلمتين الأولى (مو) أى الماء والأخرى (سى) أى الشجرة ، ورأت أخاها وهو يجذب ذقن الفرعون بقسوة تجعل خوفه يتجدد ثانية ، فيقرر ذبحه ، ولكن آسيا تتدخل فى الأمر ، وتظل بزوجها حتى يغفر للطفل فعلته ، ويقرر الإبقاء على حياته ، ثم يأمر بإحضار المرضعات له .

وتبدأ المرضعات تفد إلى القصر ، وتحاول كل منهن أن تنال شرف إرضاع طفل الفرعون ، ولكن موسى يرفضهن جميعاً ، وهنا تتدخل أخته ، تتقدم من الفرعون وزوجته قائلة : (هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون) القصص/ ١٢ وعلى الفور يوافق الفرعون ، وتوافق زوجته ، وتنطلق الابنة إلى بيتها مسرعة ، ثم تعود بأمها ولا تكاد الأم تحتضن الطفل حتى يلتقم ثديها ، ويروح يرضع فى هدوء وسعادة ، ويعجب الجميع للأمر ، فتقول الأم : لا تعجبوا إلى امرأة طيبة الريح طيبة اللبن !

وهكذا عاد الطفل إلى أمه ، وعاد إلى الأم اطمئنانها وراحة نفسها ، وذهب عنها الخوف والقلق : (فرددناه إلى أمه كى تقر عينها ولا تحزن

ولتعلم أن وعد الله حق ولكن أكثرهم لا يعلمون) القصص / ١٣ .

وعندما أتمت أم موسى إرضاع الطفل أعادته إلى القصر حيث تلقفته آسيا بفرح كبير وراحت تشرف بنفسها على تعليمه وتثقيفه والعناية بجميع شئون حياته ، ولم تكن تحرم الأم زيارته بين الحين والحين ، بل كانت تسمح لها بالاشتراك فى خدمته ورعاية مصالحه . (ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكماً وعلماً وكذلك نجزى المحسنين) القصص / ١٤ .

وجاء الوزير هامان يوماً إلى القصر ساخطاً ، وأبلغ الفرعون أن موسى قتل أحد أعوانه انتصاراً لرجل من بنى إسرائيل ، ولم يكد الفرعون يسمع هذا حتى استيقظ خوفه القديم مرة أخرى ، وقرر التخلص من موسى ، وحاولت آسيا أن تعترض ، ولكن زوجها لم يستمع لتوسلاتها هذه المرة وأمر هامان بقتل موسى .

وقبل أن ينفذ هامان الأمر استطاعت آسيا أن تساعد موسى على ترك مصر إلى أرض مدين .

آسيا امرأة فرعون

إحدى الفضليات فى الجنة

تزوجت وهى فى الثانية عشرة من عمرها ابن عمها فرعون مصر الجبار المستبد المريض بالغروز والصلف والذى وصل به جنون الجهل إلى حد جعله يعتقد أنه الحاكم المطلق والإله الأوحد .

وكانت شخصية آسيا على النقيض من شخصية زوجها : كانت وديعة طيبة القلب متواضعة النفس مولعة بالدراسات الدينية ، كثيرة التأمل فى الكون وماه فيه من مظاهر طبيعية ، والحياة وما حولها من أحداث ، والموت وما له من ملابسات .

ومن الطبيعى – وهذه حقيقة تكوين آسيا – ألا تستجيب للعلاقة الزوجية القائمة بينها وبين فرعون استجابة الأنثى الكاملة ، وقد أدى هذا إلى جفاف رحمها فلم تنجب منه ، وقد زاد هذا من تعسها وشقائها ، وجعل حياتها مجرد أيام تمر بلا لون ولا معنى . .

وكأنما أراد العليم الخبير أن يخفف من شقائها بعقمها ويشبع جانباً من أمومتها المحرومة ، فأرسل إليها موسى وليداً ، وكبر موسى وحدث ما حدث بينه وبين الخصمين – الإسرائيلى والفرعونى – فساعدته على الهرب إلى

خارج مصر ، وعاش موسى ما قدر له أن يعيش على أرض مدين ، ثم جاء الأمر أن يذهب هو وأخوه هارون إلى فرعون وقومه وأن يتدرجا معه فى الدعوة إلى الكف عن ظلمه وطغيانه وغروره وإلى عبادة الله الواحد الأحد الذى لا إله غيره .

وعلمت آسيا بعودة موسى ، فأسرعت تستقبله بلهفة الأم الذى غاب عنها ولدها عشر سنوات كاملات ، ورآها فرعون ترحب بموسى فى حرارة وقوة وصدق ، فانبعث الحقد القديم فى قلبه ، وراح يذكر موسى بقتله الفرعونى وهربه من مصر ، ولكن موسى لم يعبأ بقوله ، وألقى إليه بالرسالة التى يحملها من رب العالمين .

ذهل فرعون لما يسمع وقال : رب العالمين ! وما رب العالمين ؟ فأجاب موسى : (رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون) الشعراء / ٢٨ وهنا سكت فرعون لحظات وكأنما أغلقت عليه أبواب الفهم على حين تفتحت نفس آسيا لهذه القطرات الندية من المعرفة الصحيحة تنزل على صحراء حياتها المقفرة الظامئة ، وقالت وهى تضغط على الحروف بسعادة من عثر على ضالته ، ولا يريد لها أن تفلت ثانية من بين يديه : (رب المشرق والمغرب وما بينهما !) زدنى معرفة برب العالمين يا موسى .

واغتاظ فرعون وأمرها فى قسوة أن تسكت وألا تتدخل فى الحوار

الدائر بينه وبين موسى وهارون ، ولكنها لم تسكت وظلت تطالب موسى بالمزيد وهو يتحدث . وبلغ الغيظ بفرعون قمته ، فصاح بموسى : (لئن اتخذت إلهاً غيرى لأجعلنك من المسجونين) الشعراء / ٢٩ ، ومرة أخرى لم يعبأ موسى بتهديده وقال له (أو لو جئتك بشيء مبين) الشعراء / ٣٠ فتحداه فرعون أن يفعل وجعل له موعداً يوم الزينة .

وجاء اليوم الموعود وراح الطاغية يستعرض فنون سحره على يد رجاله العباقرة ، وأحس موسى بشيء من الرهبة ، ولكنه لم يلبث أن تذكر أن كلمة الله هى العليا ، وأن الله لا يهدى كيد الظالمين ، فتشجع وألقى فى وجه الجميع وعلى رأسهم فرعون بالمعجزة الأولى ، ثم أتبعها الثانية ، وهنا حدث ما لم يكن أحد يتوقعه ، خر العباقرة الأفذاذ من سحرة فرعون ساجدين توبة عما صنعوا وخضعوا لهيبة الحق ، أما فرعون فقد اشتعل غضبه وراح يصرخ فيهم مهدداً متوعداً ، فلم يحركهم التهديد ولا الوعيد وقالوا له : (إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى) طه / ٧٣ .

وأظلمت الدنيا فى وجه فرعون بعد هذا ، وزادها ظلاماً أن وجد امرأته تهلل لانتصار موسى عليه وتصفق مع المصفقين للفوز المبين ، فأسرع إليها يسبها ويلعنها ، فإذا بها تقول له فى إيمان قوى : موسى رسول الله حقا وما جاء به من معجزات لا يقوى على مثله البشر. كلهم

مجتمعين ! لقد عشت حياتى أتأمل هذا الكون البديع المتناسق وأفكر فيمن كونه وأبدعه ونسقه ، واليوم عرفت إله الكون وصاحبه وصانعه والحمد لله على ذلك ! .

جن جنون فرعون وأخذ يذكرها بأنه هو الإله ، وأنه . . وأنه . . ولكنها رفضت أن تسمع له وصاحت به (لا . . لست إلهاً ! أنت بشر لا تملك لنفسك ضرًّا أو نفعاً ورب موسى هو الإله وحده وهو القادر فوق العباد جميعاً) .

انهار فرعون وأحس بالأرض تكاد تميد من تحت قدميه ، وكيف لا وهذه امرأته وابنة عمه أقرب المقربين إليه ، عونه وساعده الأمين تتبع موسى وتتكلم بكلامه ، بل تتحداه وتنكر ألوهيته ومقدرته ؟ فصب عليها جام غضبه ، وأمر أن تعذب أشد العذاب .

ونفذ الأعوان الأمر فألقيت آسيا فى السجن حيث ذاقت العذاب ألواناً ، ولكنها ظلت صامدة صابرة لا تخضع ولا تتراجع ، وزارها فرعون فى سجنها معتقداً أنها ستسجد له ضارعة متوسلة تطلب الصفح والمغفرة ، وعندما ساومها لتفعل قالت له : لقد عرفت النور والحق ، وذقت حلاوة الإيمان ، ولا يعقل أن أعود إلى الظلام والظلم والكفر ثانية !

فخرج من عندها ليأمر أعوانه بأن يضاعفوا لها العذاب ، وتكررت الزيارة منه واستمر الصبر والصمود منها ، وكانت كلما ضاعفوا عذابها

زادت تمسكاً بإيمانها حتى جاءت اللحظة التى تشمل فيها رحمة الله المؤمن فيفقد الإحساس بالألم ويصبح بعقيدته القوية محصناً ضد الشعور به ، فيئس فرعون وقومه الظلمة منها ، وتركوها فى سجنها كماً مهملاً لا قيمة له من وجهة نظرهم الأعمى !

وحقت كلمة الله سبحانه وتعالى على فرعون وقومه ، فخرج بجنوده ليفتك بموسى ومن معه ، فأوحى الله إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر ، ففعل فإذا اثنا عشر طريقاً جافة ممهدة ، وقد ارتفع الماء على جانبي كل طريق كالطود العظيم ، فنجا موسى ومن معه ، واندفع فرعون بجنوده يعبر المسالك نفسها ، وعندما أصبحوا جميعاً فى عرض البحر انطبق البحر ، وعاد إلى طبيعته الأولى وأغرقهم أجمعين !

وهكذا انتهت قصة ذلك الفرعون على الأرض ، وبدأت قصته فى العالم الآخر حيث يلقى هو ومن معه الجزاء الذى يستحقونه كما قال سبحانه وتعالى : (وحاق بآل فرعون سوء العذاب النار يعرضون عليها غدواً وعشياً ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب) غافر / ٤٥ ، ٤٦ .

• أما آسيا فقد وافتها منيتها فى السجن ، وصعدت روحها الطاهرة إلى ربها راضية مرضية ، وكرمها الله سبحانه وتعالى أعظم تكريم وشرفها أحسن تشريف ، فجعلها إحدى الفضليات فى الجنة ، وضرب بها

الأمثال للمؤمنين جميعاً فقال : (وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت رب ابن لى عندك بيتاً فى الجنة ونجنى من فرعون وعمله ونجنى من القوم الظالمين) التحريم / ١١ .

بلقيس
(ملكة سبأ)

تفقد نبى الله سليمان عليه السلام مملكة الطير يوماً ، فلم يجد الهدهد ، فغضب عليه وصمم على تعذيبه وذبحه ما لم يقدم عذراً مقبولا لهذا الغياب دون إذن ، وعاد الهدهد بعد قليل ودخل إلى سيده (. . فقال أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين . إنى وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم . وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون) النمل / ٢٢ – ٢٤ .

وخفف هذا القول من غضب سليمان عليه السلام وشوقه إلى معرفة الحقيقة : (. . قال سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين ، اذهب بكتابى هذا فألقه إليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون ؟) النمل / ٢٧ ، ٢٨ .

طار الهدهد بكتاب سليمان إلى مملكة سبأ ، فوصلها وقد استيقظت بلقيس من نومها على رؤيا غريبة : لقد رأت أن هدهداً قد هدّ عرشها وغير معالم حياتها وحياة شعبها ، وقد جعلتها هذه الرؤيا تتجه إلى الشمس تطلب العون والحفظ . . وبينا هى تستعد للسجود إذ بالهدهد يصيح صيحات عالية ، ثم يسقط الكتاب فوق رأسها ويختفى !

توقفت الملكة عن السجود وتملكها شعور من الدهشة والخوف ، وتناولت الكتاب بيد ترتعد ، ثم فضت الغلاف وراحت تقرأ (. . إنه من سليمان وإنه باسم الله الرحمن الرحيم ألا تعلوا على وأتونى مسلمين) النمل / ٣٠ ، ٣١ . . وعلى الفور جمعت الملكة مجلس عرشها ثم (. . قالت : يأيها الملأ أفتونى فى أمرى ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون) النمل / ٣٢ فقال رجال الحرب (. . نحن أولو قوة وأولو بأس شديد والأمر إليك فانظرى ماذا تأمرين) النمل / ٣٣ .

فلم يعجب الملكة هذا الميل إلى العنف والقتال ، وانتظرت أن تسمع رأياً آخر أكثر تعقلاً ، ولكن رجال السياسة أمنوا على رأى رجال الحرب ، فنظرت إلى الجميع بغضب ، ثم (. . قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون وإنى مرسلة إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون) النمل / ٣٤ ، ٣٥ .

وأرسلت الملكة إلى سليمان عليه السلام وفداً من العلماء والمفكرين

والقادة والفنيين وأرسلت معهم عدداً من الهدايا القيمة التى تهفو إليها نفوس أعظم الملوك . . فلما دخلوا على سليمان (. . قال أتمدوننى بمال فما آتانى الله خير مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون) النمل / ٣٦ ثم هددهم بأن يبعث إليهم بجنود لا قبل لهم بها يخرجونهم من مملكتهم أذلة صاغرين إن لم يسرعوا إليه مسلمين مؤمنين بالله الواحد الأحد الذى لا إله غيره .

ودرست الملكة الموقف مع الرسل ، واستوعبت كل كلمة قالها سليمان ، ثم جمعت مجلس العرش وقالت لهم : إنها ستذهب بنفسها إلى سليمان ، لتحاول إنقاذ المملكة ، وبدأت تستعد للرحلة .

وعلم نبى الله سليمان بما استقر عليه رأيها فأراد أن يذهل عقلها ويبهر أنظارها بالإمكانات الخارقة التى حباه الله إياها ، فجمع جنوده من الإنس والجن ثم (. . قال يأيها الملأ أيكم يأتينى بعرشها قبل أن يأتونى مسلمين . قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإنى عليه لقوى أمين) النمل / ٣٨ ، ٣٩ ثم (. . قال الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك) النمل / ٤٠ وما هى إلا ثانية أو أقل حتى كان العرش بين يدى نبى الله سليمان فلما رآه (قال هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربى غنى كريم) النمل / ٤٠ :

ثم أمر سليمان عليه السلام جنوده بأن ينكروا لها العرش ، وأن يغيروا معالمه ليرى إن كانت ستهتدى أم تكون من الذين لا يهتدون .

وجاءت بلقيس وما كادت ترى العرش حتى تسمرت فى مكانها ، فقال لها سليمان عليه السلام : (أهكذا عرشك ؟ قالت كأنه هو) النمل / ٤٢ .

وتقدمت تريد أن تدخل الصرح – وكانت ساحته من الزجاج فظنته ماء ، وكشفت عن ساقيها لئلا تبتل ثيابها ، فابتسم سليمان ثم (قال : إنه صرح ممرد من قوارير) النمل / ٤٤ . فخجلت من جهلها ، وأحست بعظمة سليمان وما وهب الله له من قدرات عجيبة وهتفت : (رب إنى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين) النمل / ٤٤ .

امرأة زكريا

انتهى زكريا من إلقاء موعظته بالمعبد ، وانصرف المصلون فاتجه إلى بيته ، وفى الطريق كان يفكر ، لقد أشرف على التسعين دون أن ينجب ولداً يحمل الرسالة من بعده ، ويحفظ شريعة الله على الأرض ، وعندما وصل البيت استقبلته امرأته مرحبة كعادتها كل يوم ، ولكنه لم يرد تحيتها . ودخل إلى صومعته . فأسرعت خلفه متسائلة . فأفضى إليها بما فى نفسه ، وراح يبدى لها خوفه من الموالى الأشرار الذين يفسدون فى

الأرض . وينتهزون كل فرصة للنيل من شريعة الله ! فقالت المرأة المؤمنة : لا تخف أيها الزوج الكريم ؛ فالله الذى أنزل الشريعة قادر على حفظها وصيانتها من الموالى وغيرهم . .

وتذكر زكريا مريم فجأة ، وكان المسئول عن رعاية شئونها . فعاد إلى المعبد واتجه إلى المحراب فإذا هى مستغرقة فى صلاتها . فجلس يستريح حتى تنتهى من صلاتها . ونظر حوله مستعرضاً المكان . فلاحظ وجود فاكهة كثيرة منوعة بعضها لم يحن موسم ظهوره . فأخذه العجب . وما كادت مريم تنتهى من صلاتها حتى سألها عن تلك الفاكهة فقالت : (هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب) آل عمران – ٣٧ ، فازداد عجب زكريا وراح يسأل نفسه : أليس الله الذى اختص مريم بهذا الرزق فى غير أوانه وجاءها بفاكهة الربيع فى الخريف بقادر على أن يرزقنى وزوجتى العاقر الولد فى خريف العمر !

واستحوذ هذا التفكير على ذهن زكريا ساعات هتف بعدها (رب . . هب لى من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء ، فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب أن الله يبشرك بيحيى مصدقاً بكلمة من الله وسيداً وحصوراً ونبياً من الصالحين) آل عمران ٣٨ . ٣٩

بعد ذلك حملت امرأة زكريا بعد أن اشتعل رأسها شيباً . وأصبحت عجوزاً لا تقوى على شيء . ومضت شهور الحمل مسرعة ، ثم

جاءها المخاض ووضعت يحيى . ولم يكد زكريا يعلم بالخبر حتى سجد لله شكراً . واطمأنت نفسه . وكبر يحيى . فاجتهد أبوه فى تعليمه وتثقيفه وتزويدة بكل ما تحفظ واعيته من معلومات عن الدنيا والدين :

(يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبياً . وحناناً من لدنا وزكاة وكان تقياً وبراً بوالديه ولم يكن جباراً عصيا . وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا) مريم ـ ١٢ ـ ١٥ .

وهكذا أصبح يحيى المرجع الأول والأخير لعلوم التوراة ، والفيصل فى أحكامها وأوامرها . وبلغه يوماً أن الحاكم قد صمم على الزواج من ابنة أخيه . فثار للحق وأفتى بأن هذا الزواج باطل لا تقره الشريعة ، ولا تسمح به ، وعلمت العروس بفتواه ، فجعلت مهرها رأس هذا الذى يعارض فى زواجها بمن تحب . وعلم الحاكم برغبتها فأمر بقتل يحيى وتقديم رأسه على طبق من الفضة لمن تحب .

وعلمت امرأة زكريا بقتل ولدها ، فلم تبك ولم تنتحب ، وإنما رفعت رأسها إلى السماء وهى تقول : سبحانك ربى إنك أنت الذى أنزل الشريعة وإنك أنت القادر على حفظها وصيانتها . !

مريم
أم عيسى عليه السلام

اصطفاها الله وطهرها ، واختارها دون نساء العالمين ، لتكون أماً لنبيه الكريم عيسى عليه السلام ، وكانت أمها – عندما شعرت ببوادر الحمل بعد يأس من الإنجاب – قد نذرت ما فى بطنها لله ، وقررت أن تجعله خادماً فى بيت المقدس مدى الحياة . فلما وضعت أنثى قالت : (رب إنى وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثى وإنى سميتها مريم وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتاً حسناً) آل عمران– ٣٦ ، ٣٧ .

ورفعت الأم الأمر إلى أحبار بيت المقدس ، وكان زكريا زوج أختها كبير الأحبار وشيخهم ، فاقترعوا فيما بينهم على من يكفل مريم ، وانتهى بهم الأمر على أن يكفلها زكريا .

وأقام لها زكريا حجرة أعلى المعبد ، وكان يقوم على خدمتها بنفسه ، وعندما درجت من الطفولة إلى الصبا بدأ يلقنها أصول الديانة وتعاليم السماء . وقد وجد عندها أطيب الاستعداد للعلم والحفظ كما وجدها متجهة إلى الله عاكفة على العبادة ليل نهار لا يشغلها من أمور الدنيا شيء !

(واذكر فى الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً فاتخذت من دونهم حجاباً فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً ، قالت إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا . قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكيا) مريم-١٦ – ١٩ .

ذهلت مريم لما سمعت ، وتساءلت : كيف يكون لها غلام وهى العابدة الناسكة البتول التى لم يمسَسْها بشر : (قال كذلك قال ربك هو على هين ، ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمراً مقضياً) مريم-٢١ .

وأحست مريم بالحمل ولم تدر ماذا تفعل أو تقول لأهلها ؟ فابتعدت عن الجميع لئلا يلاحظ أحد ما بها فيسألها وهى لا تملك الإجابة المقنعة للبشر : (فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت يا ليتنى مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً فناداها من تحتها ألا تحزنى قد جعل ربك تحتك سريا وهزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً فكلى واشربى وقرى عيناً فإما ترين من البشر أحداً فقولى إنى نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسياً) مريم-٢٣ – ٢٦ .

وعادت مريم إلى قريتها تحمل وليدها ، ونظر إليها أهل القرية ، ولم يصدقوا أعينهم وراح الأشرار والمفسدون يوجهون إليها عبارات قاسية ساخرة وقال العقلاء : (يا مريم لقد جئت شيئاً فرياً يا أخت هارون ما

كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا . . فأشارت إليه قالوا كيف نكلم من كان فى المهد صبيا) مريم –٢٧ – ٢٩ . . ولم يمهلهم الوليد المبارك ولم يترك أمه الطاهرة هدفاً لسخريتهم وإنما صاح بهم : (قال : إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبياً وجعلنى مباركاً أينما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حياً وبراً بوالدتى ولم يجعلنى جباراً شقياً والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا) مريم –٣٠ – ٣٣ .

ذهل الناس وتراجعوا مأخوذين أمام هذه المعجزة الكبرى ، وراح بعضهم يلوم بعضاً ، وبعض ثالث يلوم نفسه ، ويذرف الدموع ندماً وأسفاً ، ثم أفسحوا الطريق لمريم وابنها ، فدخلت القرية مرفوعة الجبين ، تحيط بها هالات الاحترام والتقدير .

عائشة

أم المؤمنين رضى الله عنها

أمر النبى ﷺ رجاله بعد غزوة بنى المصطلق بالاستعداد للرحيل ثم أمر أهله ، فانتظم الجميع على الطريق ، ثم تحركوا نحو المدينة دون أن يكشف أحدٌ منهم غياب عائشة زوجة الرسول ﷺ ، وكانت قد ابتعدت عن المكان لقضاء حاجة .

وعادت عائشة ، فلم تجد أحداً ، فجلست تنتظر معتقدة أن الرسول سوف يفتقدها ويرسل إليها من يعود بها ، وانقضى معظم الليل وهى فى مكانها قلقة لا تدرى كيف تتصرف ؟

وفجأة ظهر صفوان بن المعطل السالمى بناقته ، ولاحظ وجودها ، فأسرع إليها متسائلاً عن سر وجودها وحدها فى هذا المكان ، فألقت الخمار على وجهها ولم تتكلم ، فقدم لها الناقة ، وانتظر حتى ركبت ، ثم أمسك بالزمام ، وسار حتى أدرك ركب رسول الله ظهيرة اليوم الثانى ، وسأل الرسول عائشة عما حدث ، فروت له القصة كما حدثت ، فصدقها ﷺ .

غير أن أهل النفاق من ضعاف النفوس اتخذوا من هذه الواقعة مادة للطعن فى ظعينة رسول الله ، فقال عبد الله بن مسطح : والله ما نجا منها ولا نجت منه ! ثم راح اللعين مع أصحابه يروّجون الأكاذيب الملفقة ، وسمع الرسول أكاذيبهم ، واستاء منها أشد الاستياء ، وانتظر أن ينزل الوحى عليه بالخبر اليقين ، ولكن الوحى لم ينزل ، وبدأ الشك يتسرب إلى بعض الذين آمنوا ببراءة عائشة ، فقرر الرسول عليه أزكى السلام أن يحسم الموقف ، وخرج إلى الناس فقال : أيها الناس . ما بال الذين يؤذوننى فى أهلى ويتقولون عليهم بغير الحق ، والله ما علمت منهم إلا خيراً ، ولقد ذكروا رجلاً ما علمت فيه إلا خيراً ، وما يُدْخِل شيئاً من

بيوتى إلا وهو معى ! وانقسم الناس بعد هذا القول إلى فريقين : الأول يؤمن ببراءة عائشة ، والآخر يؤمن بما يدعيه مسطح وأصحابه .

ومرضت عائشة رضى الله عنها ، وكان من عادة رسول الله ﷺ أن يضاعف من عطفه فى أثناء المرض ، ولكنه هذه المرة لم يفعل ، فعز عليها ذلك ، وذهبت إلى بيت أبيها ، وظلت هناك إلى أن تماثلت للشفاء .

وجاءت أم مسطح تعودها ، وما كادت تدخل إلى حجرتها حتى تعثرت وسقطت فهتفت (نفس مسطح) ، فهال عائشة أن تقول هذا القول عن رجل شهد بدراً فروت لها أم مسطح القصة كاملة .

بكت عائشة بكاء المتهم البرىء ، وتمثلت بقول يعقوب عليه السلام : (فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون) يوسف-١٨ .

وجاء الرسول ﷺ إلى بيت أبى بكر ، وفجأة تغشاه ما كان يتغشاه ساعة نزول الوحى ثم نطق بالآيات : (إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم ، لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم ، والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم . لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً وقالوا هذا إفك مبين . لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء فإذْ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون . ولولا فضل الله عليكم ورحمته فى الدنيا والآخرة لمسكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم . إذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم ،

وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم . ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم . يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبداً إن كنتم مؤمنين . ويبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم . إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة . والله يعلم وأنتم لا تعلمون . ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله رءوف رحيم . يأيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبداً ولكن الله يزكى من يشاء والله سميع عليم) النور-١١ - ٢١ .

وهكذا أكرم الله سبحانه وتعالى عائشة زوجة الرسول أعظم إكرام ؛ إذ أثبت براءتها وطهرها بهذه الآيات الشريفة .

زينب بنت جحش

أم المؤمنين

أمها أميمة بنت عبد المطلب عمة رسول الله ﷺ ، وكانت ممن هاجر مع رسول الله إلى المدينة ، وهناك خطبها ﷺ لزيد بن حارثة ولده بالتبنى ، وقد عز عليها أن تتزوج رجلاً من غير الصرحاء فقالت :

يا رسول الله إنى لا أرضاه لنفسى وأنا أيم قريش ! فقال ﷺ : فإنى قد رضيته لك . ثم أضاف (.. وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم) الأحزاب-٣٦ فرضيت زينب . وامتثلت لأمر الله ورسوله وتزوجت زيداً ، ولكنها ظلت تشعر فى قرارة نفسها بعدم الرضاء عن ذلك الزوج الذى لا يدانيها فى الأصل والنسب ، وظلت تعتبر هذا الزواج إهانة كبيرة لها .

ومع الأيام قوى هذا الشعور فى نفس زينب ، واشتد واستطاع أن ينغص حياتها الزوجية ، بل استطاع أن يقضى على هذه الحياة ، فوقع الطلاق !

ولعلها إرادة الله سبحانه وتعالى التى جعلت هذا الشعور يستقر فى نفس زينب . ثم يقوى ويشتد ليقع الطلاق فى ظروفه الخاصة ، ليمكن من خلال تلك الظروف إيضاح ما استغلق على الناس من مفاهيم وتصحيح ما استقر فى نفوسهم من أوهام ثم سن الشرائع اللازمة الواجبة .

وتذكر لنا المراجع أن رسول الله ﷺ حاول أن يمنع وقوع الطلاق بين زينب وزيد ، ولكن الله سبحانه وتعالى أراد لهذا الطلاق أن يتم ، فأوحى إلى النبى ﷺ (.. وتخفى فى نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه) الأحزاب-٣٧ . فتوقفت على الفور محاولات الرسول الكريم ، وانتهت الزوجية بين الاثنين .

وما إن أتمت زينب عدتها حتى أراد الله سبحانه لها الزواج من رسوله شخصياً ، وهكذا زفت زينب إلى أعظم شخصية ، وكان فى ذلك شفاء نفسها من ذلك الشعور الذى كان يشقيها ويجعل حياتها جحيماً لا يطاق ، بل إن هذا الزواج جعل زينب تتيه على النساء جميعاً وعلى نساء النبي خاصة ، فكانت تقول : إنى أفضلكن : زوجكن أهلكن ، وزوجنى الله من فوق سبع سموات !

وقد دهش الكثيرون لهذا الزواج ، واعترض بعضهم عليه ، وقال بعض آخر ! حرم محمد نساء الولد وتزوج امرأة ابنه ! فقطع الله سبحانه وتعالى ألسنتهم بالآية الكريمة : (ما كان محمد أبا أحد من رجالكم) الأحزاب – ٤٠ والواقع أن زيداً لم يكن ولدا لرسول الله إلاّ بالتبنى ، وهذا لا يجعل له حقوق الولد ، ولا يمنع النبى ﷺ من الزواج بمطلقته . وما كان الرسول الكريم ليطمع فى امرأة زيد وهو الذى زوجها إياه ، وكان باستطاعته أن يزوجها نفسه ، ولكنها حكمة العليم الخبير التى أرادت أن تعطى الناس درساً عملياً يوضح لهم ما خفى من أمور دينهم ، ويصحح ما استقر من أوهام فى أذهانهم .

خولة

بنت ثعلب « المجادلة »

أحبها ابن عمها أوس بن الصامت وأحبته ، وانتهى الحب إلى زواج دام عشر سنوات فى سعادة كاملة ، وأنجب عدداً من البنين والبنات ، ومع مضى هذه السنوات العشر لم يضعف الحب ، ولم يفتر بل ازداد قوة على قوته وخاصة من جانب الزوج الذى كان حبه أعنف وأقوى ، وكانت غيرته الدائمة تذكى هذا الحب وتشعل ناره ، وفى يوم من الأيام دخل أوس إلى بيته فلم يجد خولة ، فانتظرها عند الباب حتى عادت فسألها : أين كنت حتى هذه الساعة يا خولة ؟ ولماذا خرجت دون إذن منى ؟ فأجابته بشىء من عدم المبالاة : كنت فى زيارة أمى ، وما أظن زيارة أمى فى حاجة إلى إذن ، وعلى كل فإن الأمر فى منتهى البساطة ولا يستدعى كل هذا الغضب المرتسم على وجهك !

وظنت خولة أنه سيدع الغضب وينهى الأمر عند هذا الحد ، ولكنه لم يفعل وراح يناقشها الحساب فعجبت لأمره وقالت : ما هذا أيها الرجل ؟ أبعد هذا العدد من الأولاد تغار على هذه الغيرة ؟ ثم تركته واتجهت إلى حجرتها فلحق بها قائلاً : إننى أريدك فلا تذهبى يا خولة !

فقالت فى شيء من الغضب : أنا على وضوئى منذ صليت المغرب وسوف أصلى العشاء : فقال وهو يجذبها إليه : لا داعى للعجلة فالعشاء باقية إلى ما قبل الفجر . فلم ترد عليه خولة ، وإنما جذبت نفسها ، واتجهت إلى داخل حجرتها ، فدخل وراءها وهو يقول : أتعرفين أن تصرفاتك هذه تضايقنى كثيراً وتحز فى نفسى فسألته بدهشة : أى تصرفات تعنى ؟ فقال على الفور : إهمالك لى وعدم تقديرك لحبى إياك ! فقالت خولة بشيء من السخرية : عدنا مرة أخرى إلى أحاديث الحب والغرام يا أوس ؟ ألم أقل لك كف عن هذا فقد كبرنا وشاب شعرنا ؟ فقال لها وهو يتأملها باشتهاء شديد : أو تنكرين حبى لك يا خولة وهيامى بك ؟ فقالت وهى تتجاهل نظرته المصوبة إليها فى نهم : لا ، يا أوس ولكن ، ولكن لكل شيء أوانه ! فاقترب منها وقال : هذا أوانه يا خولة ، وأنا زوجك ولى عليك واجب فرضه الله ! فنظرت إليه فى عتاب وقالت : وهل قصرت فى واجبك يا أوس ؟ فقال وهو يحاول احتضانها : كثيراً ما تقصرين فدفعته بعيداً عنها فى قسوة ، واتجهت تريد الابتعاد عنه ، ولكنه لحق بها قائلاً : خولة إنك تستفزيننى ، ولن أسكت على هذه الحال أبداً ، فضحكت بسخرية وقالت : افعل ما بدا لك يا أوس ! وعز على أوس أن تعامله زوجته هذه المعاملة وكبر فى نفسه ألا تستجيب لرغبته فقال لها : أنت على كظهر أمى !

ولم تكد خولة تسمع هذ العبارة حتى قالت بفزع : أوس ، ماذا تعنى ؟ فقال بتأكيد يشوبه الغيظ والانفعال : أنت حرام على كأمى تماماً فهتفت : لقد جننت ، جننت ورب الكعبة يا أوس ! فقال : (أنت التى دفَعْتِنِى لهذا بحمقك وطيشك يا خولة) ! فقالت وقد انهمرت الدموع من عينيها : بل أنت الذى طاش عقلك واستحوذ الشيطان على رأسك ! فأطرق أوس إلى الأرض وقال والألم يحز فى نفسه : لقد انتهى ما كان بيني وبينك . فصرخت بكل قواها : لا ، هذا محال ، محال يا أوس فأنت زوجى ، وأنا زوجتك وأم أولادك . ثم إننى أحبك ولا أتصور الحياة بدونك !

وكان الظهار من أشد طلاق الجاهلية ، لأنه فى التحريم أوكد ، وفى قطع الصلة بين الزوجين أبين وأقوى ، فَسُقطَ فى يد خولة ، وحارت فى تصريف هذه المصيبة التى هبطت عليها دون سابق إنذار ، وراحت خولة تعرض المشكلة على رجال العلم وأصحاب الرأى علها تجد عندهم حلاً لها دون جدوى .

وأشاروا عليها بعرض المشكلة على النبى ﷺ . فأسرعت إليه شاكية باكية ، ولما لم يكن لدى النبى ما يقضى فى مشكلتها على ضوئه فقد قال لها : ما عندى لك شىء .

أوشك عقل خولة أن يطير من رأسها وازدادت لوعتها ، وتضاعف

ألمها وأساها ، ولكنها لم تفقد الأمل . وعادت إلى الرسول الكريم تلح عليه وتلح ، ولما لم يكن صلوات الله عليه قد تلقى شيئاً بشأنها فقد كرر لها قوله : ما عندى لك شيء .

جنت خولة وأحست أن الله لا يريد لها أن تعود إلى زوجها وأولادها وإلا أوحى إلى رسوله شيئاً فى أمرها ، فرفعت رأسها إلى السماء وهتفت والدموع تملأ عينيها : رباه ، يا من تسع رحمتك كل الناس ، يا مرسل الوحى ومفرج الكرب ، فرج كربى واكشف الغمة عن قلبى ، وأنزل على نبيك الوحى بما يحل مشكلتى يا أرحم الراحمين .

وبينما هى فى تضرعها وتوسلها إذ تغشى النبى ما كان يتغشاه عند نزول الوحى ثم نطق لسانه بالآيات الكريمة : (قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى إلى الله والله يسمع تحاوركما ، إن الله سميع بصير * الذين يظاهرون منكم من نسائهم ما هن أمهاتهم ، إن أمهاتهم إلا اللائى ولدنهم وإنهم ليقولون منكراً من القول وزوراً ، وإن الله لعفو غفور * والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا ذلكم توعظون به والله بما تعلمون خبير * فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا ، فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكيناً ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله وتلك حدود الله وللكافرين عذاب أليم) المجادلة ـ ١ ـ ٤

وأسرعت خولة بالبشرى إلى زوجها ، وجاء الزوج إلى الرسول ليسمع منه بنفسه ، فسأله النبي ﷺ لماذا فعل ما فعل ؟ فقال ورأسه مطرق من الخجل : لعب الشيطان برأسي وأضاع صوابي ، فركبت الشطط وأمعنت في الغي وأملي كبير أن تقبل عذري وتصفح عني ، وأن تستغفر لي الله عز وجل ، فسامحه النبي واستغفر له ثم قرأ عليه الآيات وسأله : أتستطيع عتق رقبة ؟ فقال أوس : لا ، والذي بعثك بالحق يا نبي الله . فعاد الرسول يسأله : أتستطيع صوم شهرين كاملين ؟ فقال الرجل في خجل : لا والله ، ولولا أني آكل لكَلَّ بصري وأوشكت أن أموت ، فسأله الرسول للمرة الثالثة : وهل تستطيع أن تطعم ستين مسكيناً ؟ فقال الرجل وقد تضاعف خجله : لا ، إلا أن تعينني بصدقة من عندك يا رسول الله .

فمد النبي الكريم إليه يد المساعدة حتى استطاع أن يطعم ستين مسكيناً . وبذلك صارت زوجته حلالاً له ، وجعل الله من هذه القصة سبباً للتحلل من هذه العادة الجاهلية التي كانت منتشرة إلى ما بعد الإسلام . وهكذا انتشر ضوء الإسلام فبدد ظلمات الجهل وأزاح سحب الضلال وقامت بفضل دعائمه السليمة القوية الأسرة المسلمة القوية السليمة ومن ثم المجتمع الإسلامي السليم القوى .

امرأة العزيز

بعد أيام من وصول يوسف إلى بيت العزيز استطاع أن يكسب ثقته ، وأن يستحوذ على حبه وعطفه فقربه العزيز إليه . وبالغ فى إكرامه وأدخله فيما بين نفسه وأهله ، وأنزله من قبله منزلة الابن .

ومرت السنون على يوسف وهو فى بيت العزيز حتى كبر وأصبح شاباً مليئاً بالحيوية والشباب ، ومثلاً أعلى فى الجمال واكتمال البنيان والأخلاق ، وبدأت أنظار امرأة العزيز المرأة الجميلة الفتية تتجه إليه ! .

رأت فيه شاباً يُشتهى ورجلاً يحب . وأخذ إعجابها به يكبر مع الأيام ، ولم يلبث هذا الإعجاب أن تحول حبا قويا جارفا ملك عليها مسارب الحس ومنافذ الشعور . فوسوست به فى خلوتها وتمنته لنفسها خلا وحبيباً ، ولكن . . . ولكن كيف السبيل إليه وهى امرأة العزيز سيدة نساء المملكة وهو الخادم البسيط ضمن جيش الخدم الذى يملأ قصرها ؟

واشتد بها الهوى . فراحت تقرب يوسف إليها وتتودد إليه وتحاول جاهدة أن تسترعى أنظاره إليها لعله يشعر بما تكنه له فى قلبها . ولكن يوسف أعرض عن محاولاتها ، وانصرف عنها . فلم يزدها هذا منه إلا إقبالاً عليه وتدلها فى غرامه ، وفكرت امرأة العزيز . وفكرت ثم انتهت

إلى خطة رسمتها بمنتهى الدقة .

وفى اليوم التالى تزينت وتعطرت وارتدت من ثيابها أفخرها وأغلاها . ثم أرسلت وصيفتها إلى يوسف تدعوه إلى حجرتها الخاصة على عجل لأمر هام .

وعجب يوسف لهذه الدعوة . ولم يتصور أن يكون له لقاء مع امرأة سيده فى خدرها فرفض أن يذهب مع الوصيفة التى راجعت سيدتها ثم عادت إليه تقول .

إن سيدتى تدعوك لكى تسلم لك بيدها أمانة هامة تركها سيدى لديها ، وسافر على أن تقوم أنت بتسليمها لصاحبها سرًّا ودون أن يراها أحد أو يراك وأنت تتسلمها

وذهب يوسف إلى خدر المرأة الداهية معتقداً صدق ما قالته الوصيفة له . ولم يكد يخطو خطوات داخل القاعة حتى فوجئ بالمرأة العاشقة ، وقد غلقت الأبواب من خلفه وأسدلت الستائر . ثم تقدمت منه قائلة فى وله : هيت لك !

لم يكن يوسف بطبيعة الحال يتوقع هذا التصرف الشاذ من سيدة القصر زوجة أعظم رجل فى المملكة . ومع ذلك فإنه لم يضعف أو يخضع فيستجيب لها ويحقق نزوتها الفاحشة بل تراجع قائلاً : معاذ الله أن أخون الرجل الذى أحسن مثواى ! فصاحت به المرأة وقد جن

جنونها ! ماذا تخاف ؟ لقد غلقت الأبواب وسدلت الستائر ولن يرانا أحد ! فقال يوسف وهو ينظر إليها باحتقار شديد : إن الله يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور وحاشى لله أن أستجيب إلى أمر يجعلنى فى مجال المعصية إنه لا يفلح الظالمون .

وعز على امرأة العزيز وقد هيأت نفسها وهيأت المكان والظروف لتحقيق رغبتها الجامحة التى طال عليها الكبت والحرمان ، عز عليها أن يرفض يوسف طلبها وأن يقابل عرضها لنفسها عليه بالجفاء والصد وعدم الاستجابة ، وكبر الأمر فى نفسها وثار غضبها فهمت بيوسف ، وهم بها يريد أن يدفع الشر عن نفسه . ولكن الله سبحانه وتعالى ألهمه ألا يفعل ، وأن يتجه إلى الباب فوراً ، واتجه يوسف إلى الباب يريد الخروج وقبل أن يصل إليه أمسكته هى من قميصه ، ثم جذبته بمنتهى الشدة فتمزق فى يدها ، ومع ذلك لم يعبأ يوسف ، واستكمل جريه نحو الباب وفى هذه اللحظة فتح الباب فجأة ودخل العزيز !

موقف فى منتهى التأزم والحرج ، وهو فى نفس الوقت يدعو إلى الريبة والشك جعل المرأة اللئيمة تدافع عن نفسها مستعملة المكر والخداع والكذب فقالت لزوجها وهى تبكى بحرارة إن يوسف قد اقتحم على مخدعى محاولاً أن يدنس عرضى وراودنى على نفسى ! (ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذاب أليم) يوسف – ٢٥

واستمع يوسف إلى قول المرأة فى ذهول وتعجب كيف جرؤت على قلب الحقائق ثم قال للعزيز فى هدوء الواثق المطمئن إلى نفسه : هى التى راودتنى عن نفسى وجذبتنى من ثوبى ، وهذا قميصى شاهد على صدقى ! . ونظر العزيز إلى زوجته التى تبكى بحرارة ونظر إلى يوسف الذى يعرف أنه شريف كريم وحار فى الأمر ، وبينما هو فى حيرته إذ دخل ابن عم الزوجة ، وكان رجلاً ذكياً حكيماً واسع الخبرة كثير التجربة وخاصة فى ميادين النساء فلما سمع القصة قال :

(إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين ، وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين) يوسف – ٢٦ ، ٢٧

ونظر العزيز إلى القميص فإذا هو قد من دبر ، فعلم أن يوسف لم يخنه ، وقال لامرأته : بأسف مرير : إن هذا من كيدكن أيتها النساء ومكركن ، استغفرى لذنبك إنك من المخطئين . ثم استدار إلى يوسف وقال له : وأنت يا يوسف اربط لسانك ، ولا تثر هذا الذى حدث مرة ثانية خشية أن تنتشر القصة بين الناس ، فنصبح مضغة فى الأفواه !

وشاعت فى المدينة قصة امرأة العزيز برغم كل الاحتياطات التى اتخذها العزيز لئلا يشيع الخبر ، ولاكت ألسنة النساء كلهن خبر الزوجة التى راودت خادمها عن نفسه !

وكانت فرصة للنساء كى يشفين ما فى صدورهن من سخط عليها

لغرورها وتكبرها عليهن ، ووصلت أقوالهن إلى امرأة العزيز فغضبت واغتاظت وصممت على الانتقام منهن جميعاً ومقابلة مكرهن بمكر أشد وأقوى . وفى يوم من أيام الربيع المشرقة دعت نساء المدينة إلى حفل ضخم ، وأقامت لهن وليمة فاخرة وسط مجلس وثير ، ثم قالت لوصيفتها قدمى لهن الفاكهة وأعطى كل واحدة منهن سكيناً حادة النصل مسنونة الحافة . ففعلت الوصيفة ما أمرتها به سيدتها ، وبدأت النسوة يقشرن الفاكهة بالسكاكين ، وفى هذه اللحظة طلبت إلى يوسف أن يخرج عليهن ، ولم تكد النساء يشاهدن يوسف حتى ذهلن عما فى أيديهن ، فإذا بالسكاكين تهوى على أيديهن فتقطعها بدلاً من الفاكهة . فيصرخن صرخات مرتفعة ، وإذا بإحداهن تصيح (ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم) يوسف - ٣١ فقالت امرأة العزيز : هذا هو يوسف الذى لمتننى فيه وسخرتن منى إذ راودته عن نفسه . ولئن لم يفعل ما آمره به لأدفعن به إلى غياهب السجون وأعذبنه أشد العذاب ! .

وبدأ النساء يعتذرن لامرأة العزيز عما بدر منهن فى حقها ورحن يحاولن التأثير على يوسف لعله يخضع للمرأة العاشقة وينفذ لها ما أرادت ، ولكن يوسف نظر إليهن جميعاً باحتقار ، ولم يرد بكلمة واحدة ، ومضى إلى سبيله ، وقد ازداد إصراراً على موقفه الشريف ، ولما اختلى بنفسه توجه إلى الله فى تضرع وابتهال قائلاً :

(السجن أحب إلى مما يدعوننى إليه ، وإلا تصرف عنى كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين) يوسف - ٣٣

وانتظرت امرأة العزيز أن يحدث كلام النساء رد الفعل اللازم فى نفس يوسف ، ولكنها لم تجد شيئاً ، فصممت على الانتقام منه ، وظلت بزوجها حتى زج به فى السجن ، وامتدت أيام يوسف فى السجن ، وقد ضاق به فى البداية ، ولكنه لم يلبث أن احتمله راضياً وخاصة بعد أن تحول من سجين عادى إلى مرشد وموجه وأستاذ يعلم الرجال ويبصرهم ويشرح لهم دعوته القائمة على الإيمان بالله الواحد الأحد . . .

ومضت سنوات وسنوات تغيرت فيها الدنيا من حال إلى حال ، وتبدلت الأوضاع فزال ملك العزيز ، وقام مكانه عزيز آخر أعمق فهماً وأكثر خبرة ودراية ، وأميل إلى إحقاق الحق ومحو الباطل ، وشاء القدر أن يرى هذا الملك فى نومه رؤيا لا يفسرها إلا يوسف السجين !

ويعجب الملك الجديد بتفسير يوسف للرؤيا ، ويرى فى طريقته ما يدل على رجاحة عقله وغزارة علمه ، فيصدر أمراً بالعفو عنه ويرسل إليه طالباً حضوره إليه فى قصره لينفذ رأيه الذى أشار به فى تفسيره للرؤيا إنقاذاً للبلاد من المحنة التى أوحت بقدومها رؤيا الملك والمجاعة التى تدل عليها أحداث الرؤيا وتفسيرات يوسف إياها

ولكن يوسف يرفض أن يخرج هكذا دون تحقيق عادل يضع الأمور

فى نصابها ، ويعيد إليه كرامته كاملة غير منقوصة ، ويعجب الملك لأمر يوسف ، ويتحرى الوقائع التى كانت وراء زجه فى السجن ، فينكشف له أن يوسّف دخله وأقام فيه زهرة شبابه لا لشىء إلا لأنه أراد أن يعيش طاهراً عفيفاً غير مدنس الثياب ، ويستقدم الملك امرأة العزيز ، فتحضر إليه وقد أصبحت عجوزاً تتوكأ على خادمتها ، وتعترف بما كان منها ، وتقول للملك وسط حاشيته ورجال المملكة جميعاً بصوت أضعفه الكبر وأكل أجزاءه الزمن الآن حصحص الحق ، أنا راودته عن نفسه وطارحته الغرام ولكنه أبى واستعصم وكان لربه حافظاً وللعزيز وفيا ، وإنى أقرر الآن أنه أعف من رأيت نفساً وأشرفهم روحاً وأطهرهم قلباً ، وأنه دخل السجن واحتمل ما احتمل من عذابه طوال تلك السنين بريئاً مظلوماً ، وإنى أعترف بهذا الآن : (ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدى كيد الخائنين) يوسف _ ٥٢

وقد عاشت امرأة العزيز بعد ذلك سنوات طوالاً ورأت يوسف وهو يقوم على خزائن البلاد ، ويسير بها نحو الرخاء والعدل والازدهار .

أم جميل
حمالة الحطب

كان أبو لهب بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ وزوجته أم جميل بنت حرب بن أمية من أشد الكفار عداوة للرسول وقسوة عليه وعلى الذين آمنوا به ، ولقد أشعلاها حرباً لا هوادة فيها ولا رحمة عليهم ، وكانت أم جميل أشد بغضاً للنبي وأقوى ظلماً وأكثر جرأة فى ارتكاب المفاسد ، بل إنها هى التى كانت تحرض أبا لهب زوجها ضد الرسول وتدفعه إلى مناهضة دعوته ، بل تدفعه إلى تعذيبه وأصحابه والتنكيل بهم ، وكانت لعنها الله تفتن فى ابتكار ألوان التعذيب للمسلمين وتخترع الوسائل لذلك !

أمرت خادمها يوماً أن يذبح شاه ويسلخها ، ثم يخرج ما فى بطنها من قاذورات الكرش ، فلما فعل الخادم وجاءها يسأل ماذا يفعل قالت له : لوث باب بيت محمد ببعضه ، وانثر بعضه الآخر أمام البيت وحذار أن تقترب من بابنا لئلا تلوثه هو الآخر ! ونفذ الخادمُ أمرها وحول ما أمام بيت النبى إلى بحيرة قذرة عفنة الرائحة على حين وقفت هى وراء

الخصاص تراقب الرائحين والغادين إلى بيت النبي من أهله وأقاربه وأصحابه وتشهد وهي في غاية السعادة انزلاق بعضهم وسط قاذورات الكرش ! ولما عاد زوجها من الخارج جعلت مادة الحديث التندر بهذا الفعل الذى عدته انتصاراً على محمد وصحبه وآل بيته ! وسألها زوجها الخبيث . وماذا فعل محمد أمام هذا التصرف ؟ فقالت وهي تضحك ساخرة : طرحه بعيداً ثم قال يا بني عبد مناف أى جوار هذا ولم يزد شيئاً ؟ فقال الكافر اللعين المغرور : لو كانت به استطاعة لتصرف تصرفاً آخر ، ولكنه يخشى بأسي وبطشي وسطوتي ! فقالت له بخبث ومكر : يخيل إلى أنه لا يخشاك يا أبا لهب ، ولكنه يجتمل ويتلطف معنا لئلا تؤذيه في ابنتيه اللتين تحت ولدينا عتبة وعتيبة ! فقال الرجل بغرور ما بعده غرور : لا . . . لا . . . إنه يخشاني أنا ويرهب سطوتي أنا ، ويخاف مكانتي العظيمة الخطيرة في قريش كلها !

وكانت كريمتا رسول الله ﷺ رقية وأم كلثوم قد تزوجتا ولدى أبي لهب قبل أن يبعث النبي رسولا بالإسلام ، ولقد توقعت خديجة فشل هذا الزواج لما كانت تعرفه من أخلاق أم جميل وشراستها ، وحاولت جاهدة منع الزواج ، ولكن الرسول رأى ألا يرد أبا لهب خائب الرجاء .

ولما بعث بالإسلام عانت الفتاتان الكريمتان الأمرين على يد أم جميل التي حولت حياتهما إلى جحيم مستعر ، ولكنهما صبرتا واحتملتا على

مضض إكراماً لأبيهما ، ولم يعجب هذا الصبر أم جميل فجمعت ولديها وقالت لهما : لقد صممت على أمر يخصكما ، وما أظنكما ستخرجان عليّ أو تفكران فى مخالفة ما استقر عليه رأيى ! ولما استوضحاها الأمر قالت : لابد أن تطلقا رقية وأم كلثوم وتردادهما إلى أبيهما ! . . فقال عتبة ولكنى أحب زوجتى يا أماه ، ولا أظننى سأجد زوجة تدانيها إخلاصاً وحباً وفناء فى خدمتى ! فقالت المرأة الشريرة بقسوة وحزم : ولو ، لابد من طلاقها ! فقال عتبة هكذا دون ذنب أو جريرة نطلقها ؟ فأجابت : أجل ، ولقد اتفقت مع أبيكما على أن نعيدهما إلى أبيهما انتقاماً منه ! فأطرق عتيبة إلى الأرض وقال : أماه ، من لى بزوجة كزوجتى ؟ فقالت المرأة القاسية : ردها إلى أبيها لينشغل بها وبأختها عن تلك الدعوة التى يريد أن يقضى على آلهتنا بها ، وأنا على استعداد لتزويجكما بأجمل بنات قريش وأعظمهن مالاً وأحسنهم نسباً . .

ولم يستطع الولدان إلا أن ينفذا رغبة أمهما . فطلقا الزوجتين الكريمتين الفاضلتين ورداهما إلى أبيهما !

وظنت المرأة الخبيثة الشريرة أنها قد ألقت إلى محمد ﷺ بما لا قبل له به ولا قدرة على احتماله ، ولكن خاب ظنها إذ أدركت رحمة الله محمداً وابنتيه وهيأت للفتاتين حياة أفضل من حياتهما فى بيت الشر الذى كانت تسيطر عليه أم الشر ، أم جميل .

ودخل أبو لهب على زوجته يوماً وقد استخفه الفرح وقال : أبشرى يا أم جميل ، فقد أفسدت على محمد جميع خططه ونفذت ما رسمته لى بالحرف الواحد وسألته أم جميل أن يفصل قوله فقال : تبعته فى كل مكان ذهب إليه يدعو الناس إلى الإسلام وكنت عندما يدخل منزلاً أنتظره فى الخارج حتى يفرغ من دعوته فأدخل أنا وأتقدم من أهل البيت وأوضح لهم أنه إنما يدعوهم إلى الانسلاخ عن اللات والعزى وأحذرهم طاعتـه أو الانخداع بقوله ، فقاطعته المرأة باهتمام : وهـل كانوا يستجيبون له ؟ فأجابها : كان بعضهم يستجيب له ويدعوه إلى الجلوس والتوسع فى الشرح وكان بعضهم الآخر ينصرف دون تعليق ؛ فاستحسنت المرأة فعل هذا الفريق الآخر ثم قالت : عظيم استمر على متابعتك له ، ولا تتهاون فى إفساد خططه وتسوىء سمعته أمام الجميع وتكذيبه ! فقال متحمساً : وهل أنا فى حاجة إلى مثل هذا القول منك يا أم جميل ؟ إننى على استعداد للموت فى سبيل القضاء على محمد ودعوته

قال أبو لهب هذا القول بلسانه ، فلما دعى إلى قتال محمد وأصحابه فى بدر قال وقد أخذ الرعب والخوف منه كل مأخذ : إننى مريض اليوم فاذهبوا أنتم إلى قتال محمد ، وسأنتظر عودتكم بأخبار هزيمته ونصركم !

وتأتى الأخبار بانتصار محمد وأصحابه فيفزع الزوج وتثور أم جميل على الرسول الذى جاءها بالخبر وتروح تناقشه الحساب وكأنه هو المسئول

عن كل شيء قائلة : كيف ؟ كيف يهزمكم محمد بعشرات من الرجال الفقراء الضعاف وأنتم مئات المئات من الرجال الشجعان الأقوياء الأغنياء ؟ كيف ؟ فيرد عليها الرجل : والله ما إن لقينا القوم حتى منحناهم أكتافنا يقتلوننا كيف شاءوا ! وتصرخ أم جميل بغيظ شديد وسخط أشد قائلة : عجباً أيها الجبناء الرعاديد ، عجباً لكم فقال الرجل بلهجة قوية واثقة : أقصرى فى اللوم أم جميل ؛ فقد كان مع محمد رجال بيض على خيول بلق ، رجال لا حصر لهم ولا عدد ، وكانوا يقاتلوننا بأسلحة غريبة لا نعرف لها اسماً ، ولم نر لها من قبل شكلاً ، وهكذا انتصر محمد هذا الانتصار العظيم المذهل !

ولم تقصر أم جميل فى اللوم ، بل اندفعت تسب قريشاً وتلعنها وتتهمها بأبشع صفات الجبن والخور والضعف ، واشترك زوجها فى هذه الحملة القاسية ، واتهم الرجال — رجال قريش — بالجبن وهو أجبن الجبناء ، وهنا ضاق الرجل القادم من المعركة بقولها وقال : (إن محمداً أقوى مما تظنون) ، فصرخت أم جميل : ماذا تعنى يا رجل ؟ فقال الرجل : (محمد بن عبد الله قوى بالله ، قوى بالحق ، فلا تحاولوا مقاومته ؛ لأنكم المنهزمون مدى الدهر ! فنظرت المرأة إليه نظرة فاحصة وقالت : أراك تنحاز إلى جانبه ! فقال الواقع أننى لم أعد أشك فى محمد أو فى دعوته ، وإننى قد أسلمت معه لله رب العالمين)..

انفجر غضب أم جميل وزمجرت ساخطة ، وزمجر زوجها وكانت معركة بينهما وبين الرجل الذى كان أقوى منهما بما استقر فى نفسه من إيمان عظيم ، فانتصر عليهما ، وسقط أبولهب على الأرض مريضاً وتوفى بعد أيام من هذا الحادث ، وبقيت أم جميل تجمع الأحطاب لتحرق محمداً وصحبه ، ولكنها لم تحرقهم ، بل أحرقت عقلها إذ أصيبت بالجنون وهى ترى الانتصارات الإسلامية تتوالى نصراً بعد نصر ، وترى نور الدعوة وهو ينتشر ليعم الجزيرة العربية كلها !

المراجع

القرآن الكريم
الأحاديث الشريفة
كتب التفسير
قصص الأنبياء
الأناجيل الأربعة
تفصيل آيات القرآن

فهرس

صدر من هذه السلسلة :

١ – طعام الفم والروح والعقل	توفيق الحكيم
٢ – الفضاء ومستقبل الإنسان	د . فاروق الباز
٣ – شريعة الله وشريعة الإنسان	المستشار على منصور
٤ – أسس التفكير العلمى	د . زكى نجيب محمود
٥ – عالم الحيوان	د . محمد رشاد الطوبى
٦ – تاريخ التاريخ	على أدهم
٧ – الفلسفة فى مسارها التاريخى	د . توفيق الطويل

الكتاب القادم :

علم التفسير	د . محمد حسين الذهبى

رقم الإيداع	١٩٧٧/٤٦٩٢
الترقيم الدولى	ISBN ٩٧٧ – ٢٤٧ – ٦٠ – ٨

٨٣/٧٧/ق

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)